مجلة كليّة
# الدعوة الإسلامية
عشر
مجلّة إسلاميّة - ثقافيّة - جامعة - محكمة تصدر سنويًا
1424 من ميلاد الرسول ﷺ 1995 أفرنجي

## إختتام النّبوّة

## ظاهرة الشّعراء الكُتّاب في ليبيا

## مالم يُذع من المصطلحات النحويّة

## مجمل لتاريخ الكنيسة

# دراسة تركيبة الطريقة المريدية وتصوفها

للأستاذة كونشيتا تديسكي

عن مجلة «آفريكا Africa» الإيطالية عدد 1 من السنة 51

ترجمة الدكتور
محمد علي التائب

قبيل بداية هذا القرن أسس الشيخ أحمد بامبا Ahmadu Bamba طريقة المريدية، وهي طريقة مجهولة نسبياً خارج السينيغال، ولكنها تحتل في داخل حدود ذلك البلد مكانة رفيعة جداً. ولد الشيخ بامبا في الإقليم السينيغالي المسمى باوول Baol في مدينة أمباكي M'Backe سنة 1850، وبرز على المسرح السياسي سنة 1885 في معية الملك «لات ديور Lat Dior damel» ملك «الكايور Cayor» الذي أسلم سنة 1870 وفي سنة 1888 رسّم الحاج كامارا المتوفي سنة 1889 الشيخ أحمد بامبا «شيخاً». وفي السنة التالية لتنصيبه أسس مدينة «طوبا Tuba »[1] في ضواحي القرية التي ولد فيها. ونفي [من قبل

(1) أحد أسماء الجنة، يرى بعض من أرخ له أن من أهداف اختياره لهذا الاسم إعداد أتباعه ذهنياً لتقبل دعواه بأنه حامل لواء رسالة الرسول محمد ﷺ في هذا الزمن، وأن له شأناً في =

فرانسا] أولاً إلى القابون سنة 1895 ثم إلى موريتانيا سنة 1904. وهناك تعرّف على الشيخ «سيديا Sidya» أحد أساتذته الروحيين، وتكررت مناوءة الإدارة الاستعمارية لمواعظ الشيخ بومبا، غير أن ازدياد عدد أتباع الطريقة جعل مجهود تلك الإدارة في معارضة مواعظ الشيخ تذهب أدراج الرياح. وتوفي الشيخ بومبا سنة 1927 بمدينة «ديوربيل Diorbel» ونقل جثمانه إلى «طوبا» حيث صار ضريحه مزاراً لأعداد مهولة من المريدين[2] الذين يحجون إلى الضريح حتى اليوم.

## تركيبة الطريقة

مصطلح «مريد» في اللغة العربية هو الذي «يتوق إلى شيء» «وهو الذي يرغب في شيء، أو يبحث عن شيء» [وتعني هنا] (يبحث عن معرفة الله). لكن لفظ «مريد» صار يطلق تحديداً ـ منذ نهاية القرن الماضي ـ على من ينتسب إلى الطريقة التي أسسها بامبا، بينما يفهم من لفظ «الإينارية Muridismo» مجموع المبادىء الدينية والاجتماعية التي يطبقها، أتباع بامبا. وترجع أسباب سرعة انتشار الطريقة إلى تركيبتها القائمة على تسلسل الدرجات [للقائمين عليها] وهذا ما يستجيب للمتطلبات(*) الدينية للشعب السينيغالي،

---

= نشر الإسلام وتبيانه للناس. (المترجم).

(2) يرى بعضهم أن اللقب الأصيل لأي من أتباع بومبا لم يكن «مريدي Muridi» ولكن كان «أمباكيي M'Backeti» نعت مشتق من أمباكّي اسم القرية التي ولد فيها. والظاهر أن المفضل هو تلقيبه بلقب «مريدي Muridy» اشتقاقاً من رسم كلمة «مريد» العربية التي اعتاد الأوربيون استعمالها في لغاتهم، ويقال نفس القول عن مصطلح «مرابط Marabutto»(*) وكان لمعنى لفظه بدائل مختلفة في الآداب العربية والإسلامية. وبصفة عامة يشير هذا المصطلح اليوم إلى دارسي القرآن وإلى الفقهاء الذين يمارسون مهام دينية واجتماعية بصفة خاصة، ويمكن أن يكون لهم أتباع، وفي هذه الحالة يمكن أن يحمل لقب «شيخ». قوبل مع مؤلف P. Marty «الإسلام في السينيغال» ط/ باريس Lerox 1917 E. Doutte «المرابطون Marabutti».

(*) لفظة مرابط لا تعني أينما وردت في هذه الترجمة أكثر من صاحب بركة وقد أطلقها المؤسس على بعض أسر ذوي المكانة في تسلسل وراثة مشيخة الطريقة. (المترجم).

(*) توحي الباحثة للقارىء بأن المريدين ـ على الرغم من اعتناقهم الإسلام ـ فهم ما يزالون يشعرون بفراغ في عواطفهم الدينية لا يملؤه إلا وجود زلفى بينهم وبين الله جلّ وعلا. (المترجم).

فهي تركيبة تسمح بالتنبؤ بأن الطريقة سيتولى قيادتها ـ بعد وفاة مؤسسها ـ أبناؤه ثم ذرياتهم من بعدهم إلى أن تنتهي إلى المرابطين(*).

يعود أيضاً الانتشار الواسع للطريقة إلى وجهين اثنين، الوجه الأول ديني والآخر اقتصادي سياسي، وهما الوجهان اللذان تتجلى الطريقة فيهما وقد سعت الدراسات المركزة على الطريقة «المريدية» إلى أن تعرض للأضواء الوجه الخارجي [الملموس](3) أي الوجه الاقتصادي السياسي، ضاربين صفحاً عن عمد، أو مقلصين على الأقل ـ في أثناء انشغالهم بالتركيز على الوجه الاقتصادي ـ الميزة الأصلية لهذه الطريقة ألا وهي الجانب الصوفي فيها.

ومن المهم جداً التنبيه على أن «فكرة العمل كمطهر» [روحي] للرجال كانت مفهومة من الأساس عند المنتسب إلى الطريقة المريدية على أنها الخطوة الأولى نحو «المعرفة الروحية» لذاته هو، مع أن التصوف الإسلامي كان مجهولاً تماماً عند السينيغاليين، ولذلك فلم يكن في إمكان بامبا توجيه جماهير أتباعه نحو التأمل، فاتجه إلى حثهم على العمل ناسباً إلى «العمل» قيمة صوفية مطهرة، ولهذا عرف ليوبولد سينقور أول رئيس لجمهورية السينغال المرحلة الانتقالية لبلاده التي كان الفضل في معظم [ازدهارها] للمريدية فقال: «إن

---

(*) مفردها مرابط ويرجع أصلها إلى فجر الإسلام حينما كان المسلم يذهب من تلقاء نفسه إلى الثغور ومظان المنافذ التي قد يهجم عبرها أعداء الإسلام على بلاد المسلمين، يربط فرسه ويرابط هو في ذاك الموقع الاستراتيجي لفترة تصل إلى أربعة أشهر وأزيد ليشارك في صد من يتجرأ من الأعداء على الهجوم على ذلك الموقع.

سمي هذا النوع من الجهاد مرابطة، وسمي هذا النوع من المجاهدين مرابطين. وحيث إن من مات منهم ولو حتف أنفه حال مرابطته أو في الطريق إلى موقعه أو منه هو في حكم شهيد المعركة، وحيث إن مصير الشهداء الجنة جزاء ما نووا من رباط فنعتقد أن لقب مرابط الذي كان مقصوراً ـ لغة ـ على المحاربين المتطوعين لحماية ثغور المسلمين ونقاط الضعف في خطوطهم قد وسع الناس مفهومه ليشمل كل من ظن المسلمون أنه مقبول عند الله لتوفر صفات فيه أضفى عليها الزمن طابع التسليم بها. واقترنت بالتماس الناس بركة المرابط بمعناه الثاني المكتسب. (المترجم).

(3) قوبل [هذا الرأي] بمؤلف I. Taddia «المريدية السينيغالية ومشكل التطور الاقتصادي» «آفريكا» روما العدد 33/ 1978 من 383 إلى 403.

عبقرية الشيخ بامبا كانت في فهمه لحالة السينيغال والسينيغاليين وفي استطلاع ديانة تأخذ في اعتبارها حالة التخلف والجهل بالدين. ومن تلك، ومن وجهات المرحلة الزمنية المهمة للانتقال التي يجتازها السينيغال، وأيضاً الاحساس الصوفي الذي تمكن الشيخ بامبا من إضفائه على العمل لم يكن إلا الشكل الوظيفي للصلاة، إذن يجب أن لا يفهم العمل على أنه بديل لها»[4].

قال بامبا أمباكاني دييوب Bamba M'Backane Diob وهو كاتب سينيغالي «لم يكن المريدي مهتماً كثيراً بالنجاة في الحياة الأخرى بمقدار اهتمامه بالاتحاد الحقيقي بالإله في هذه الحياة الدنيا والعمل هو الوسيلة الوحيدة للوصول إلى هذا الاتحاد[5]. إن بامبا تفطن - في واقع الأمر - إلى الأزمة الثقافية الناتجة عن التماس بين الثقافة [المحلية القديمة] والثقافة الجديدة ووجد [في تلك الأزمة] أرضاً ذات خصوبة خاصة لفكره، وأن طرحه الصوفي الإسلامي ذي التوجهات التقليدية الموحدة مع فكرة عمل ذات طابع تعاوني فتحت مُثُل الإسلام.

إن القبيل العرقي لد «وولوف Wolof» الذي ينتمي إليه بامبا[6] كان الأول في اعتناق ظاهرة «المريدي» بسبب خلفيتهم الثقافية السابقة، فقد كان الوولوف موحدين منذ زمن بعيد[7] يؤمنون بإله واحد، ويؤمنون بالجن (مخلوقات بشرية لكنها تختلف عن الإنسان العادي بأن لها قدرة على الاتصال بالإله). والوولوف يقومون بالختان والتزوج بأكثر من زوجة، وعدا ذلك فإن أحد أعمدة مجتمعهم هو الروح الجماعي الذي يجمع كل الناس في فريق واحد

---

(4) الفكر الديني عند أحمد بامبا، Nea داكار 1975 ص 117.

(5) B.B. Diob لات ديور والإسلام. المبدأ الاجتماعي لأحمد بامبا ص Bruxelles, Les Arts 36 Graphiques.

(6) إنه، وإن كان الشيخ ذا أصل يرجع إلى «التوكولور Tucolor» فإن وولفية والده مردها إلى إقامته زمناً طويلاً في بلاد الوولف، وأدى ذلك لأن يعتبر الشيخ نفسه منتمياً انتماء صادقاً لعرق الوولوف، وهم أيضاً أخواله.

(7) إن توحيدهم عميق وثابت بحيث لا يمكن رده إلى إسلام معروف رسمياً بحداثة [عهده في مواطن الوولوف] فالإسلام لم ينتشر بينهم إلا في سنة 1870 فقط. ؟؟؟.

كأنما تلمهم قرابة دم لصيقة. وكل ما ذكر لا يسعه إلا أن يجعل الذاكرة تسترجع فكرة «الأمة» [المتحدة] التي تميز المجتمع الإسلامي.

سرعة تكيف فريق عرق الوولوف مع الطريقة المريدية كان لمبعثها أكثر من سبب منها: ما يقتضيه الرفض الصامت للتغريب الذي خطط له الفرنسيون. وما يقتضيه استردادهم لقيمهم الأصلية، عبر نظرية جديدة متطورة في مجموعها نسبة إلى الصور الدينية والاجتماعية والثقافية الموروثة. ومن المعلوم، أنه عند تحليل أية ظاهرة دينية فإنه من غير المستطاع تجاهل الخلفية الثقافية الاجتماعية السابقة التي تمثل القاعدة، حيث إن الثقافة هي تراث من قيم معترف بها أقرتها تقاليد تاريخية محددة سابقة، وتندمج الحركة «المريدية» تماماً في هذه القرينة[8]، وتبقى المريدية إحدى أهم المعبرات عما يعرف بإسلام السود [*]، وعن تلك الظاهرة أي الظاهرة التي ترى التحام ميزات الإسلام مع ميزات آحاد مجموعات عرقية إفريقية ـ والمرابطية هي آكد دليل ـ وأهمية المرابط في المجتمع الإسلامي[**] كما هو في المريدية التي تنحدر من المرابطية ـ تعود إلى عدم وجود «سدنة شعائر Clero» في «العقيدة الإسلامية Culto» وهذا يتعارض مع ما ـ عند الشعوب الإفريقية ـ مع ضرورة أن يكون لهم رئيس واحد [يحسون أنهم مرتبطون به] والذي يمثل للمؤمن مرجعاً صلباً، (ويعود بنا الفكر إلى الهالة التاريخية التي كانت دائماً [تشع] من شخصية الساحر عند القبائل القديمة). إذن فدور المرابط يقوم بتشكيل دور [الجسر] بين الإسلام والديانات السابقة. وهذا ما يخول المرابط في السينيغال مكانة

---

(8) الواقع أن بامبا كان سنياً شديد الالتزام بالسنة، في مبدأ أمره على الأقل. قوبل بمؤلف M.Villeneuve، الطريقة المريدية P.127-163 (1965) Ibla.

(*) ترجمة عبارة الباحثة هي «الإسلام الأسود» «غير المستساغة» إذ ليس للإسلام ألوان أسود وأحمر وأبيض، وإنما هي زلة قلم.

(**) المرابط في مفهوم بعض عوام المسلمين له مكانة وكرامات الولي ولا يشترطون فيه ما اشترطه القرآن الكريم القائل ﴿. . . إن أولياؤه إلا المتقون. . .﴾ فقد تكون المرابطية بالوراثة أو بالغياب المتقطع أو الدائم للعقل أو بالمظهر كالأثر السابغ للسجود وما يعلقه في رقبته من مسابح وارتداء مرقعات وأسمال. ويعتقد بعض العوام أن المرابط يضر وينفع لما له من مكانة عظيمة يعتقدون أن الله منحها له وأنزله إياها. (المترجم).

أكثر رفعة [من مكانة الساحر] ويجعل بعض العوام مقتنعين أنه يمثل الله(*) في الأرض، لهذا فإن الانقياد لله المعتاد في الإسلام تصير في المريدية انقياد المريد للمرابط [الذي يؤمن ببركته].

القرآن يخلو بكل تأكيد من شخصية المرابط وإنما يتحدث فقط عن الولي (جمعه أولياء) ومفهومه [القريب من الله] [مكانة] الآية 62 من السورة العاشرة ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾. وعن نفس الموضوع يؤكد «مونتيل Monteil أن (المرابط هو رجل الله أو ولي)[٨]. وهو ذلك الذي يتجلى للمؤمنين من خلال رحمته بهم وبعلمه وعمله فيصير بذلك قائدهم الروحي(9).

وعقب وفاة الشيخ بامبا سنة 1927 طفا مباشرة على السطح عدد من الشخصيات ذوي الأهمية البالغة إضافة إلى الورثة الشرعيين المنتمين إلى أسرة الشيخ، من بين تلك الشخصيات كان الشيخ «أنتا Anta» والشيخ «إبرا فاتي Ibra Fati» والشيخ «إبرا فال Ibra Fall» الذين أوصلوا الطريقة إلى الإنقسامات المتطورة، فكل من المرابطين الثلاثة طور بدرجة تزيد أو تنقص أحد التوجهات الرئيسية للطريقة. وهكذا تكيفت المريدية ونظمت في قطاعات متمايزة على الرغم من بقائها مترابطة فيما بينها.

وفي الوقت الحالي يتنازع الطريقة تياران: فمن جهة ترى الطريقة اتباع تيار المرابطين من سلالة أسرة بامبا(10) الذين يحملون لقب [أمباكي -

---

(*) المسلم الصافي الإيمان لا يحتاج إلى وسيط بينه وبين خالقه سوى طاعته الكاملة له وإلا فلا معنى للصراع بين العلماء وأتباع كل فريق منهم على تفسير معنى «الوسيلة» (المترجم).

(9) V. Monteil مجمل السينيغالية Nique IFAN, Dakar 1966, p.160 R.P الإسلام وسود السينيغال في «الإسلام والإرساليات الكاثوليكية (ندوة المعطيات بالمعهد الكاثوليكي بباريس) ط/ باريس. 1962 ص 135 إلى 160 و F.Quesnot إطارات المرابطين المسلمين السينيغاليين CHEAM باريس 1962 ص 131 إلى 160.

(10) ابتداء كان المؤسس وحده يملك سلطة تسمية مرابطين جدد، وتكوين حواريين جدد. وبعده لم تستحدث أسر مرابطين جديدة، وصار قيامها بالتوارث المباشر، وبهذا بقيت محصورة في أسرة بامبا، انظر J. Copans «الرعاية الاجتماعية والتغيرات الاقتصادية في السينيغال. Orstom داكار 1972 ص 24.

أمباكي]، ومن جهة ترى [المرابطين] المسمين [امباي فال] المشتق من اسم مرابطهم إبرا فال وهو ليس من ذوي قربى الشيخ بامبا. وبدوره ينقسم فريق [امباكي - امباكي] المكون من حواريي الشيخ «أنتا» إلى فرعين أو تيارين يتزعم أولهما الأخ الثاني لبامبا، وهو الذي ترك أثراً اقتصادياً وسياسياً على التيار الذي يتزعمه[11]. التيار الآخر ويتزعمه الشيخ إبرا فاتي، وهذا الشيخ قصر نشاطه على تطوير التيار الصوفي الروحي فقط وبقي أحد الورثة الأوفياء للفكر الأصيل لمؤسس الطريقة. وهذا التيار الأخير الذي أكد «قيمة» الخلق الديني هو الذي فتح الطريق أمام أفضل الآمال لمستقبل البشرية، ولا تتوقف نظريته عند فكرة استدامة الكائن [البشري]، ولكنها تسمو به [روحياً] باسم الوجود الرباني. وبقي نظام الحياة الاجتماعية للطائفة في هذين التيارين مماثلاً تقريباً لتلك الحياة باستثناء ما سبق ذكره عن التوجه الخاص بكل منهما، والواقع أن «الدائرة» (مصطلح عربي ينطوي على معنى الحلقة أو القطاع) التقليدية للطائفة المريدية بقيت حتى يومنا هذا دون تغيير، محتفظة بميزاتها كطائفة دينية مزارعة حيث يجاور [في مقرها المعد للطلبة] شباب المريدين يزرعون [بالنهار] ويتعلمون [بالليل] الثقافة العربية الإسلامية لا سيما النظرية المريدية.

أما فريق «امبايي فال» M'Baye Fall» فله مميزات ينفرد بها إذ هو لا يعنى بأي دين من الأديان[*] ولا بأي نوع من التعليم فأفراده يعتقدون [ظاهرياً على الأقل، فالتدين في ذاته غريزة في الإنسان] وأن الأدعية التي يبتهل بها المرابط إلى الله من أجلهم كافية [لغفران ذنوبهم عندما يمنحها لهم] لقاء

(11) التمسك بالحياة المادية كلفت الشيخ «أنتا» التخلي عن حقه في خلافة بامبا بحكم عضويته في أسرة أمباكي.

(*) عندما ناقشت أحد زملائي في دراسة علم الدين المقارن بعد أن علمت بأنه نجل أحد أقطاب عشيرة «الأمباي فال» أجابني - بعد وعدي إياه بعدم البوح باسمه -، بأن الفرائض الدينية لم تسقط عن أولئك «المريدين!» لأن معظمهم لا يدين أصلا بالإسلام والقليل منهم من المسلمين بالوراثة لا يعرفون من الإسلام إلا اسمه. والعشيرة أنما تقدم لهم المأوى والعمل تألفاً لقلوبهم فقد يضيء الإسلام بصيرتهم فيسلموا كما حدث للكثيرين منهم منذ أن وضع هذا النظام.

عملهم اليدوي. وعلى الرغم من تجاوز الحدود البين الذي يتميز به المرابط [مثل إسقاطه لجميع الفرائض الدينية مقابل خدمة عضلية يؤديها الفرد من مريدي هذه العشيرة] (*) فإن فريق «أمباي فال» بقي وفياً عملياً لمبادىء بامبا، وعظيم هو ولاؤهم لفريق [أمباكي ـ أمباكي] إذ يماثل في عظمته ولاء الشيخ «ابرا فال» لتعاليم مؤسس الطريقة. فـ «المذهب الذرائعي» لهذا الفريق واضح وجلي ينحصر في إعطاء قيمة لفكرة ما عندما تتجسم تلك الفكرة وتحققها التجربة العملية فقط. فحقيقة فكرة ما تبقى إذن في عواقبها التي تنبثق عنها، أو في واقع تكشفها عن جدوى تصل إلى الغاية وأن تمنح رضاء نفسياً. إن هذه المذهبية الذرائعية تنزع إلى أن تكون الخبرة العملية عوضاً عن العقل وعن عملية المعرفة. فأتباع «ابرا فال» يبشرون بنظرية عملية تعارض روحية الشيخ «ابرا فاتي».

واليوم ـ ما زالت الطريقة المريدية قابلة لتطورات هامة، وهي مستمرة في الانتشار سواء في داخل السينيغال أم في خارجه[12] وما زالت تتكشف الساعة عن أنها وسيلة جيدة لتجاوز الخلافات العرقية.

والحقيقة أن المريدية التي انتشرت أولاً بين الوولوف، قد شاعت فيما بعد بين فرق عرقية منها التوكور (أقدم مسلمي السينيغال) ممثلة في الترفع عن معظم الخلافات، محققة وحدة كانت ستكون في منتهى الصعوبة أو بالأحرى مستحيلة.

## الصوفية

ترسي حياة المريد الصوفية على احترام بعض القواعد المستقاة من

(*) اتخذ الباحثون من مثالب الطرق الصوفية من إسقاط الفرائض عن أبناء عشيرة «امباي فال» ـ لقاء ما يقدمونه من خدمة يدوية ـ سلاحاً يحاربون به الإسلام والطرق والتصوف كما يتضح في كثير من الكتابات المنشورة في مجلات بعض منها سامي المكانة العلمية.

(12) البلدان الأخرى ذوات الحساسية تجاه النظرية المريدية هي في الوقت الحالي: ساحل العاج ومالي والكونغو؛ Villeneueve عمل مذكور في ص 243.

[صدق الإيمان] بالعقيدة الصحيحة[13]. والتسليم والطاعة للشيخ هما من بين جميع القواعد يمثلان [القاعدة] الأكثر أهمية لا في داخل الطريقة المريدية فحسب بل في صميم مبدأ التصوف أيضاً الذي تنبثق عنه الطريقة المريدية.

التصوف ـ وفق رأي «آربيري Arberry» هو تعبير عن [التوحيد دون مشارطة] والتصوف في رأي «ماسينيون Massignione» هو [نمط من الرقابة الضميرية الفردية الأصيلة العاملة تلقائياً، إنه تجربة ثقافية للألم والرغبة في التضحية التي تفوق قدرة البشر، إنه الوله الذي يتعالى عن الآلام...] وقال عنه الصوفي الزاهد حسن البصري، من زهاد القرن الثامن، «بع حياتك الحاضرة بالحياة الآخر وأنت تكسب الاثنتين، ولا تبع حياتك الآخروية مقابل حياتك الحاضرة لأنك ستخسرهما كليهما»[14]. وقال زاهد آخر من رجال القرن التاسع هو التستري [الحواري يجب أن يكون في يدي شيخه كجثة الميت بين يدي المغسل] وبامبا أيضاً قال [الحقيقة تكمن في حبك لذات شيخك]. هذه العلاقة [المتمثلة] في الألم والاتباع والطاعة، إضافة إلى التماس تبريرات ذات طبيعة دينية أدت دوراً هاماً جداً على مستوى اجتماعي سهّل للإدارة الاستعمارية الفرنسية اكتساب سلطة حتى في الحقل الديني مكنت من إعمال العلاقات بين النظام الصوفي والحكومة الفرنسية من خلال الوجه الاقتصادي للطريقة[15].

ولنحلل الآن المظهر الصوفي للطريقة المريدية [إن تصوفها ـ كما وصفه كتابة «قارديت Gardet»[16] ينتشر في المجموع الكلي لمراقبة [ما جاء به] القرآن وفي السنة المحمدية]. إن خطة سير صوفية الطريقة المريدية المستلهمة

---

(13) Dumont، عمل مذكور 1975، في ص 85.

(14) A.J. Arberry التصوف، باريس Cahiers Du Sud; L 1952 Massignione، مجمل عن أصول القاموس الفني للتصوف الإسلامي، Vrin، باريس 1954؛ G.C.Anawati و L.Gardet، التصوف الإسلامي باريس 1961، Vrin ص 25.

(15) D.B.Cruise D'Obrien مريد السينيغال Clarendon Press Oxford 1971.

(16) L.Gardet خبرات صوفية في أرض غير مسيحية Alsatia, Paris 1935.

من خطة السير التصوفي تشتمل على المراحل التالية: البدء والتسبيح بأسماء الله الحسنى والعشق الصوفي والتأمل والمعرفة والندم وترويض الروح والتوحيد أي الإفراد المطلق للإله.

وحالة المريد هي نقطة الانطلاق تتبعها معرفة جيدة للواجبات الدينية الإسلامية. ففي البداية يتلقى الحواري التعليم المقرر للاستكمال تكوينه. ويرتقي من «مريدي» ـ بمعنى طالب بسيط ـ ليصير «سالكاً» وهو من يكون على مستوى يمكنه من التقدم [في مدارج الطريقة] ثم يفوض الحواري في أن يتلو «الورد» وهو نوع من (الطقوس) [لا توجد في اللغة الإيطالية كلمة تترجم كلمة ذكر بمعناه الإسلامي] التي تعده [روحياً وسيلته في ذلك] ترديد أسماء الله مرات كثيرة، وغالباً ما تكون الصيغة التعبيرية للورد هي تلاوة حزب من القرآن أو بعض منه وقد يبتكر [كلمات من عنده] بإلهام إلهي. وحسب درجة تقدم الحواري يفوضه الشيخ في زيادة عدد التسابيح وفي تلاوة الصيغ بالاشتراك مع بقية الحواريين وليس بمفرده [كما يتعين على المبتدىء أن يفعل][17]. وكلمة ذكر تعني في مصطلحات الصوفية «حمد الله» سواء أجهر بها أم أسرها أم مررها على قلبه. [ويتمثل الذكر في الترديد المستمر لاسم الله ليتذكر الذاكر الله دوماً. كما يتمثل في نسيان كل شيء عدا الله، فهو سيذكر الله وحده] (القرآن السورة 18 الآية 24) ونصها﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ وبالنسبة لغالبية أهل التصوف فالذكر هو الأسلوب العمدة المستعمل في الدعاء ويمارسونه فرادى وجماعات. والذكر الجماعي يكون ترتيلاً. ويردد ما بين ثلاثمائة وخمسمائة مرة في إيقاع متسارع بعد تطييب المكان والبدن. ويقود الذكر إلى التخلي عن الحياة الدنيوية في سبيل حياة زهد. ويستمر الحواري ـ بعد أن يجلس وحيداً ـ في ترديد لفظ الجلالة «الله» دون توقف ساعياً في أن يكون في تلك الفترة في خلوة مطلقة بنفسه، والشيء المهم في هذا العمل هو النية، العمد إلى القيام بالذكر ـ وفيما بعد يصل الذاكر إلى حالة من الاستسلام تنقله إلى أن يذكر الله

(17) Marty عمل مذكور 1917 ص 268 ـ 269.

بقلبه وليس بشفتيه أي بالترنم[18]. والحالة الروحية التي يوصل إليها هذا النهج تسمى «فناء» أي إلغاء للذات. والحالة الموالية هي فناء الفناء، أو تفريد وهي [الدرجة] القصوى أي ذهول الهيام، ويرى الشيخ بامبا أن الذكر لا يمكن أن يناقش أو يفسر [فأسراره كثيرة تفوق الحصر. ويردف قائلاً: وميزاته لا تحد][19].

الحالة الثالثة هي العشق الصوفي الذي ينزع إلى التشبه بالرسول ﷺ [ويبقى الله الفرد الذي ﴿ليس كمثله شيء﴾] إن زهد بامبا يظهر - في الواقع - في إعلاء العقيدة التي تقود إلى حب الله من خلال رسوله محمد ﷺ، ووضعيته هذه حيال شخصية الرسول عملت على أن تجعل الناس تنظر إليه كأنه مبعوث جديد من الله له على الأرض مهمة مساعدة الجماهير على فهم الرسالة المحمدية. وفي كل الأحوال يبقى بامبا أحد الزهاد الأكثر تحنفاً حتى ولو كان أسلوبه الخاص في فهم الزهد يمكن أن يقود أحياناً إلى التفكر في النقيض. أو في وضع بعض المسلمات [المتعلقة به] موضع النقاش على الأقل. ولقولي A.Goilly في هذا الباب كلمة جاء فيها: «أحياناً يلوح أنه يجهل تقريباً الأصول الحقيقية للشريعة الإسلامية وأنه يستعيض عنها بأصول دينية أخرى مستعارة»[20].

الحالة الرابعة هي التأمل الذي يعرفه قارديت Gardet بأنه [إعمال الفكر». ويشير القرآن إلى هذا الإعمال عندما يطلب من المؤمن أن يتفكر في مظاهر الكون باعتباره برهان على الوجود الإلهي. إنها إحدى البديهيات العقلية][21]؛ البصري الذي ذكره ماسينيون يقول: «التأمل هو المرآة التي تري المؤمن الخير والشر»[22]. ويتمسك بامبا بأن التأمل أجدى بكثير من التعبد،

---

(18) Dumont عمل مذكور 1975 ص 101.

(19) Dumont عمل مذكور 1975 ص 111.

(20) A. Goeilly الإسلام في إفريقيا الشمالية الفرنسية Larose باريس 1952.

(21) Gardet عمل مذكور 1953 ص 150.

(22) Massignon عمل مذكور 1954 ص 193.

ويرى أن التأمل يمكن المؤمن من التوصل إلى فهم المعرفة جاعلاً [تكاليف] التدين سهلة، كما أنه يحصن عقيدة المتأمل. وتحث الأحاديث النبوية على التفكر في السماوات والأرض وفي الشمس والقمر وفي النجوم وفي كل شيء لم يقدس عليه أن ينتهي في زمن مثلما تنتهي الحياة البشرية. ويعتقد الصوفيون أن كل إنسان يحتفظ في وجدانه [بسجل تجلي قرآني أولي][23] وهم يظنون أن المعرفة تتفوق على العلم العقلي. وتكلم بامبا في كتابه عن المعرفة «مسالك الجنان»[24] داعياً الله أن تتعمق المعرفة في قلبه رفقة الحقيقة. فالمعرفة إذن هي إدراك غامض متميز يفترض ثلاثة أمور: موهبة العلم وتدبر القرآن والمخلوقات، وأخيراً الاستنارة بنور الله. ويحدد قارديت أنها [الإشراقة التي تمنح سلطة تتفوق على الحقيقة، [وهي سلطة] لا تدرك إلا بهذه الكيفية][25].

الندم أو التوبة هو نقطة الإقلاع على طريق التصوف، إنها حركة الرجوع إلى الله، وهي بالنسبة إلى بامبا هي الشرط الذي لا غناء عنه للتمكن من سلوك طريق التصوف. واقتراف الحرام هو المعصية أي التمرد على الشريعة الإسلامية وعلى أوامر القرآن. والصوفيون يقسمون التوبة إلى شطرين: ظاهري وباطني، الشطر الأول يتعلق بالخلق والآخر يتعلق بالروح، وعالج بامبا الجانب الخلقي في مسالك الجنان الذي سبق ذكره فقال كما قال الغزالي بأنه يجب أن يعرف الإنسان أولاً نفسه ليتجنب الحرام، ثم لينضم إلى [طلاب] المعرفة الإلهية هذه [المعرفة] هي صراع القلب [الوجدان] ضد [رغبات] الجسد.

---

(23) Dumont عمل مذكور 1975 ص 149.

(24) المؤلف المعنون «مسالك الجنان» يعود إلى السنوات الأولى لشروع بامبا في التصوف (1889) وانتهى منه في سنتي ( 1885ـ 1886) قبل تأسيسه لمدينة طوبا بقليل. ويهدف المؤلف إلى نشر التصوف وليس ذلك الكتاب هو النص الوحيد لبامبا عن التصوف ولكنه أهمها ـ يقيناً ـ فهو أكثرها أهمية لاحتوائه على القواعد التي تطور بمقتضاها فيما بعد الفكر المريدي. وفي أثناء إقامة الباحثة في السينيغال قامت بترجمة كتاب مسالك الجنان بتمامه ثم دبجت الترجمة في أطروحتها للحصول على إجازة علمية في اللغة والآداب العربية ونوقشت في جامعة البندقية، وقوبلت مع مؤلف ك. تيديسكي المعنون أحمد بامبا والمريدية في السنغال (أطروحة) ط/ البندقية 1982ـ 83.

(25) L.Grdet الالتقاء بالإسلام، Fayard 1958 ص 152.

الزهد أو «الرفض» اللفظ العربي زهد مشتق من الجذر: زهد [ترك العالم] هو كالتوبة: حالة يتمسك بها (الزاهد) حتى وفاته. فغاية الزهد ليست هي الوصول إلى «حالة» بل ليتحول [الزهد نفسه] إلى «حالة» هي حالة تحرر كامل خالية من أي شيء سوى الله. [إنها مثل صحراء بلا ماء][26]. يعتبر دومونت بامبا صوفياً عملياً لا يصل إلى التصوف عن مركز الجذب في هذه المدينة هو مسجدها آبدة إسلامية من الطراز العربي فريدة في السينيغال. وتلبية لرغة الشيخ شرع في بناء هذا المسجد وكان ذلك قبل سنة من وفاته ولم يتم بناؤه إلا على يدي ابنه أحمد مصطفى أول خلفائه. وفي طوبا يقيم الخليفة العام للطريقة [الخليفة الحالي اسمه] عبد الأحد أمباكي، كما يقيم بها الكثير من «المرابطين» المعنيين بالدارسين المبتدئين الجدد في دراسة العلوم الدينية. وفيها أيضاً تقيم أسر بكاملها رغبة منها في أن تعيش في اتصال مستمر برئيسها الديني تعمل له ومعه.

وطوبا هي أيضاً مركز لاحتفالات إسلامية مهمة بأعياد يحتفل بها في هذه المدينة بكيفية أعظم مما يحتفل بها في أي مكان آخر. وهذه الأعياد هي «كوريتا Corita» و«تباسكي Tabaski و«غامو Gamu» وتعني على التوالي: عيد الفطر والعيد الكبير ومولد السنة الإسلامية[27] ولكن العيد الذي يضفي على طوبا شعبيتها هو عيد «مغال Magal» أي الحج [الزيارة] التي يتوجب على المريديين القيام بها كل عام للدعاء عند قبر الشيخ بامبا وعند قبور خلفائه. ومن المهم التنبه إلى أن المريديين - مع أنهم مسلمون - لا يؤدون فريضة الحج إلى بيت الله الحرام لأن الـ «مغال» يقوم مقام الحج [*] [إلى

---

(26) Anawati & Gardet عمل مذكور 1961 ص 152.

(27) عيد الفطر هو عيد يشير إلى نهاية شهر رمضان؛ والعيد الكبير هو عيد الأضاحي؛ والمولد هو العيد السنوي لمولد الرسول محمد ﷺ.

(*) في أثناء دراستي للطريقة المريدية ناقشت هذه المسألة مع أكثر من مثقف مريدي سراً وعلناً فأكد لي من حادثته أن الدافع إلى حضور المغال يرجع إلى عجز معظم المريديين عن تحمل نفقات الحج بينما لا تكلف زيارة طوبا شيئاً يذكر. أما العوام فلم أتبين من إجابتهم شيئاً محدداً سوى الدهشة لسؤالي الذي يبدو أنه لم يخطر قط ببال أي منهم ولم يسمعوه من قبل. وأذكر إجابة شيخ مسن منهم وعيناه تدمعان من لي برؤية الكعبة وشرق بعبرته فلم يتم.

الحرم المكي] والمغال يضفي على مؤديه الميزات الروحية التي تضفيها زيارة مكة على المسلمين الآخرين.

حدث أول مغال في 19/10/1928 بمناسبة مرور أو حول على وفاة الشيخ بامبا. وفيما بعد صار القصد من المغال هو ذكرى يوم عودة الشيخ من المنفى وذكريات أخرى لأحداث حياته[28].

ومدة الحج [الزيارة] ثلاثة أيام ولو أن المتزمتين يمكثون غالباً أسابيع كاملة في طوبا قبل الإقفال إلى بلادهم. وأهم أيام الميغال المسمى بـ «اليوم الرسمي» هو اليوم الثالث. ففي هذا اليوم الختامي يتحدث الخليفة العام إلى المريديين، ثم يدعوهم إلى غداء شكر لهم تقدمه موائده العامرة.

من أهم واجبات الحاج [الزائر] أن يصل إلى طوبا محملاً بهبات كثيرة للطائفة وللمرابطين وفوق ما يحمله للخليفة نفسه، إذ أنه من الأمور المحتمة على المريدي طيلة حياته أن [يهب كلما يملك] لأن الثروة المادية لرئيسهم الديني تمثل علامة مميزة لقوة الطائفة جميعها. وفي هذا الإطار قد يحدث أن يهب المريدي نفسه واضعاً حياته تحت تصرف المرابط ليعمل لصالحه دون أي مقابل، أو بالأحرى مقابل دعواته الصالحة. وكل مريدي مقتنع بأنه يمكنه الاعتماد على مثل هذه الدعوات. وهو مقتنع أيضاً بأنه بهذا الأسلوب وحده سينجو من أي عقاب أخروي مهما كانت أعماله في هذه الحياة الدنيا.

وواجبات المريدي في أثناء المغال التي يتعين عليه القيام بها والتي تمكنه من طهر روحي هي: القيام بزيارة الخليفة العام، وكذلك القيام بزيارة المرابطين (وبخاصة المرابط المرتبط به شخصياً)، وأن يحصر فكره في تأمل عميق عند قبر الشيخ وعند قبور خلفائه. وأن يزور المسجد، وأن يزور

(28) اعتماداً على ما تمكنت شخصياً من التثبت منه فإن الأسباب المذكورة تمثل اليوم عند المريديين المظهر الخارجي (الظاهر) للاحتفال. أما المظهر الباطني (الباطن) للمغال فهو للتذكير (استحضار الذكرى) باللحظة التي رأى فيها الشيخ أولى رؤاه (الرسولية [!!!]) التي أعطت إشارة بدئه في أداء مهمته الروحية.

الشجرة المباركة[29] وهو يستطيع أن يقوم بهذه الأعمال خلال النهار بحرية، أما في المساء فالواجب يحتم التجمع أمام المسجد لأداء صلاة المغرب وهي الصلاة التي يعقبها التأمل والترانيم [السماع] التي تدوم ـ أحياناً ـ حتى الفجر.

يمثل المغال عند الطائفة موعداً زمنياً مهماً، وهو أيضاً ميقات زمني بارز لنشاط رجال الأعمال في السينيغال كله. والواقع أن الصحافة وجميع وسائل الإعلام تشارك بفاعلية. وعلى هامش الارتقاء السياسي الحديث فإن الثقل السياسي للتعاون مع هذه الطائفة يحظى بالرعاية إذ تأخذ السلطات في حسابها أن الاصطدام بتعصب المريدي يمكن أن يكون مثيراً لاضطرابات داخلية جدية. لاسيما وأن المرابطين هم الذين سيتولون الكفاح [دفاعاً عن الوضع القائم] بحيث لا يطرأ أي تغيير على الوضع الداخلي لهيكل الطريقة. ومن الجلي أنهم يخشون أن يكون ما قد يحدث من تغيير قادراً على المساس بسلطتهم أو أن يقلل من عظيم جاههم.

ملاحظات:
تعليقات المترجم تنتهي بعبارة المترجم بين قوسين.
جمع هوامش المترجم تبتدىء بنجمة يعزلها نصف قوس.
كلمات المترجم وجمله الإيضاحية وضعت بين قوسين بزوايا.

(29) الشجرة المباركة هي نوع من شجر الباوباب تلقى الشيخ عند أصلها رؤيا مما هو فوق الطبيعة أرشدته إلى البقعة المختارة ليبني عليها طوبا؛ ولهذا السبب أيضاً فإن المدينة بأجمعها تعتبر حتى اليوم معجزة مقدسة.